الفصل الثالث

المدرسة الفارسية التترية

obeikandl.com

obeikandl.com

تحدثنا فى الفصل السابق عن مدرسة بغداد وقلنا إنها عربية فارسية تأثرت بالتصوير عند مسيحى الشرق وبالفن الساسانى، ونعرض الآن للمدرسة الفارسية التترية وهى أولى المدارس الثلاث التى امتازت بها العصور الثلاثة الكبرى فى تاريخ إيران من القرن السابع حتى الثانى عشر (الثالث عشر حتى القرن الثامن عشر الميلادى): عصر المغول وعصر تيمور وخلفائه وعصر الأسرة الصفوية.

ونحن نعلم أن المغول غزوا إيران وبلاد الجزيرة فى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر) وتوجوا حروبهم الطويلة وفتوحاتهم الكبيرة بالاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨) فأصبحت مقر أسرتهم فى الشتاء كما كانت تبريز مقرها فى الصيف. وشيد المغول فى العراق العجمى مدينة سموها سلطانية عند خط تقسيم المياه بين نهرى زنجان وأبهر، وكانت هذه المدن الثلاث أهم المراكز لصناعة التصوير فى عصر المغول.

ومن أهم مميزات هذا العصر فى الفنون بأنواعها أثر واضح لتعاليم الشرق الأقصى وتقاليده، وليس خفيًا أنه منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) كانت هناك علاقات تجارية بين الصين والإمبراطورية الإسلامية، وكانت الطرف الفنية الصينية يكثر تقليدها فى البلاد العربية حيث كانت تضرب الأمثال بمهارة الصينيين وتفوتهم فى الصناعات والفنون.

وليس غريبًا أيضا أن يصحب غزو التتر للإمبراطورية الإسلامية ازدياد العناصر الصينية فى التصوير الفارسى، فقد كانت العلاقات متينة منذ القدم بين بلاد ابن السماء وبين وطن المغول فى تركستان، وعندما فتح هؤلاء إيران

فى القرن السابع (الثالث عشر) كان مواطنوهم قد استولوا على مقاليد الحكم فى الصين، فأصبحت إيران جزءاً من إمبراطورية مغولية كبيرة امتدت إلى الطرف الأقصى من آسيا.

وعوامل الاتصال السياسية لم تكن قوية وما لبثت أن زالت، ولكن التجارة والروابط الأدبية كانت أدوم أثراً، وقد صحب المغول فى ملكهم الجديد تراجم وعمال وصناع وفنانون من أهل الصين فأصبح أثر الشرق الأقصى مباشراً.

وليس أثر الصين فى التصوير الفارسى قاصراً على ما افترضه الإيرانيون من الصناعة الصينية، ولكنه فوق ذلك كان باعثًا على عرفان هؤلاء بما يمكن الوصول إليه من التقدم فى هذه الصناعة، فالواقع أنالصور المصغرة الفارسية كانت بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨) أعرق فى الفارسية مما كانت عليه قبل هذا التاريخ.

على أن الصور التى تنسب إلى هذه المدرسة الفارسية التترية ليست كثيرة العدد لأن عصر المغول ٦٥٦ - ٧٣٥هـ (١٢٥٨ - ١٣٣٥) كان مملوءاً بالحروب والفتوح، بيد أنه فى أوائل القرن الثامن (الرابع عشر) تظهر المخطوطات التاريخية مزينة بصور المواقع الحربية ومجالس الشراب ومناظر الصيد.

ومما لا ينبغى نسيانه أن فتح المغول لم يكن قاضيًا على مدرسة بغداد بدليل ما نراه من الصور التى تظهر فيها صناعة هذه المدرسة ممزوجة ببعض التقاليد الصينية التى اكتسبها التصوير الفارسى فى ذلك العصر، وقد تظهر الصناعتان جنبًا إلى جنب، وقد توجد فى مخطوط واحد صور صناعتها بغدادية وأخرى فارسية تترية.

وفى مكتبة مورجان بنيويورك مخطوط عن منافع الحيوان لابن بختيشوع مترجم إلى الفارسية وبه أربع وتسعون صورة، وقد عمل هذا المخطوط بأمر الأمير المغولى غازان خان [٦٩٥ - ٧٠٤هـ (١٢٩٥ - ١٣٠٤)] وتم بين سنتى ٦٩٥ - ٧٠٠هـ (١٢٩٥-١٣٠٠). وبعض صوره إما منقولة عن نماذج صينية وإما رقمها فنانون صينيون. وأكثر ما يظهر ذلك فى تصوير الحيوانات والزهور والنباتات[١]؛ فقد تعلم المسلمون من الشرق الأقصى تقليد الطبيعة والدقة فى رسم الأشياء على ما هى عليه؛ فالنباتات التى يرسمونها حين يتأثرون بالفن الصينى لا تكون تقليدية يصعب تمييزها، بل يزيد القرب بينها وبين الطبيعة، وتميل الأشجار كأن الريح تداعبها[٢].

على أن صناعة التصوير لم تلق فى عصر المغول بوجه عام تلك العناية التى كانت تلقاها فى بلاط العباسيين، أو التى لقيتها بعد ذلك فى بلاط

---

(١) راجع Dimand: A Handbook... ص٢٠ - ٢١.

(٢) فى المراجع الآتية إشارات كثيرة إلى تأثير الشرق الأقصى فى الفنون الإسلامية: G. Wiet L'Exposition persane de 1931 ص٤ وE. Kuhnel; Islamische Kleinkunst ص٤٦ و٥٤ و١٣٧ وE. Kuhnel: Die islamische Kunst (Springer) ص٤٢٩ و٤٥٠ و٤٥١ و٤٥٥ و٧٤١ و٤٩٤ وDimand: Handbook ص ٢٢ و١١٥ و١٣٨ و٢١٠ و٢١٣ و٢١٤ و٢٤٠ و٢٤٢ و٢٧٨ و The Legacy of Islam (edited by (Arnold & Guillaume) ص١٣٥-١٣٦ وM. Pezard: Laceramique archalque de l'Islam ص٦١ وB. Laufer: Chinese Mhammsdan Bronzes فى مجلة Ars Islamica ج١ ص١٣٣ وما بعدها و Bin-gon Wilkinson & Gray : Persian Miniature Painting ص١١ و١٣ و٢٢ و٣١ و٣٣ و٣٦ - ٤٠ و١٠٧ و١٥٦ وقد أشار الأستاذ جاستون فييت G. Wiet فى ترجمته لكتاب البلدان لليعقوبى إلى النص الذى نشره الأستاذ بليو P. Pelliot والذى يدل على أن مؤلفًا صينيًا عاش قبل سنة ٧٦٢ مِيلادية ذكر أن صناعات النسج والنقش والتصوير والتحف الذهبية والفضية علمها صناع صينيون إلى الصناع المسلمين فى مدينة الكوفة، قارن P. Pelliot : Artisans chinois, Toung Pao, XXVI, p. 110 - 111.

التيموريين والصفويين؛ ولسنا نقصد بذلك أن هناك إعراضًا عن هذه الصناعة أو إهمالا لها، ولكن نلاحظ آثار العجلة التى نراها فى صناعة أكثر الصور الفارسية التترية؛ فالحروب الكثيرة التى امتاز بها هذا العصر لم تكن لتجعل الأمراء وكبار رجال الدولة يطمعون فى عمل دقيق يستغرق الوقت الطويل. فصور هذه المدرسة والحالة هذه يعجب بها مؤرخو الفن الإسلامى لقوتها ولغرابتها أكثر من إعجابهم بدقة فى صناعتها أو عناية فى تصويرها.

وقد بنى الوزير الكبير والمؤرخ المشهور رشيد الدين ٦٤٥ - ٧١٨هـ (١٢٤٧ - ١٣١٨) ضاحية لتبريز سماها باسمه واستخدم فيها خطاطين وفنانين لتدوين تآليفه التاريخية والفلسفية ولتصويرها[١].

ومن أهم ما وصل إلينا من الصور التى تنسب إلى المدرسة الفارسية التترية، مخطوط من كتاب جامع التواريخ للوزير رشيد الدين نفسه، يرجع عهده إلى سنة ٧١٤هـ (١٣١٤)، ومنه جزء محفوظ الآن فى الجمعية الآسيوية الملكية بلندن، والجزء الآخر فى مكتبة جامعة أدنبرا. وصور هذا المخطوط كالصور التى نراها فى سائر مخطوطات جامع التواريخ لرشيد الدين، تمثل حوادث من الإنجيل ومن حياة بوذا ومن السيرة النبوية ومن تاريخ الصين والإمبراطورية الإسلامية. والظاهرة التى تميز هذه الصور هى الأثر الصينى الواضح فى رسم المناظر الطبيعية، وفى السحنة المغولية التى تظهر فى رسم أكثر الأشخاص؛ ولهذا المخطوط أهمية كبيرة، إذ أننا نرى فى كثير من صوره العوامل الأجنبية التى أخذها الفن الفارسى عن الشرق الأقصى، والتى لم يكن قد هضمها بعد[٢].

(١) راجع Rashid Ed - Din par E. Introduction a l' Histoire des Mongols des Fadk Allah و Blochet T Arnold : Painting in Islam ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) راجع Binyon, Wilkinson & Gray : Persian Miniature Painting ص٣٤ و٣٦ و٤٤ - ٤٦ واللوحات من ١٨ إلى ٢٣.

وتمثل إحدى صور هذا المخطوط سيدنا عليا وسيدنا حمزة (رضى الله عنهما) راكبين فى طريقهما إلى مفاوضة المشركين؛ ولا تزال تقاليد مدرسة بغداد غالبة فى هذه الصورة، فأشخاصها سحنهم عربية، وخيولهم ضامرة تختلف كثيراً عن الخيول المغولية[1]. والواقع أن هذه الصور ميدان تجتمع فيه تقاليد الشرق الأقصى بتقاليد مدرسة بغداد والفنون التى أثرت فيها.

وفى المكتبة الأهلية بباريس مخطوط أخر من جامه التواريخ لرشيد الدين، أكبر الظن أنه صنع فى تبريز بين عامى ٧١٠-٧١٥هـ (١٣١٠-١٣١٥). ومن صوره صورة تمثل المغول وعلى رأسهم هولاكو يحاصرون بغداد، وأخرى تمثل المعتصم آخر خلفاء العباسيين يعبر نهر الدجلة ليلقى هولاكو بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨)، وثالثة تمثل جنكيزخان بين زوجاته ورجال بلاطه وأمامه ابناه قد ركعا يقدمان واجب الطاعة والاحترام، ويظهر فى صور هذا المخطوط الأثر الصينى فى محاكاة الطبيعة، وفى رسم الحيوانات الخرافية الصينية، وفى شكل السحب الذى نقله الفرس عن الصين بشكله التقليدى الوضع، دون أن يكلفوه أنفسهم مشقة مشاهدة السحب ورسم منظرها الحقيقى[2].

ومما يشبه فى الصناعة مخطوطات جامع التواريخ لرشيد الدين نسخة من الشاهنامة يرجع عهدها إلى النصف الأول من القرن الثامن (القرن الرابع عشر)، كان يملكها قديماً المسيو ديموت Demotte، ثم تفرقت أوراقها بين اللوفر والمجموعات الأثرية فى أوروبا وأمريكا؛ وصور هذه الشاهنامة كبيرة

---

(١) انظر اللوحة ٢٤ من ... Kuhnel : Miniaturmalerei

(٢) راجع Migeon : Manuel ج١ ص١٣٩ وانظر اللوحة ٨ شكلى ١١ و ١٢.

الحجم ولعلها أقدم ما يعرف من تصوير لهذا الكتاب؛ وأما ميزتها فوجود العوامل الفارسية والصينية والمغولية فيها جنبًا إلى جنب.

وفى اللوفر بباريس ثلاث من هذه الصور، تمثل الأولى الجيش الإيرانى يطارد ملك كابل على رأسه جيشه المهزوم، ويقود الإيرانيين فرامرز بن رستم وعلى رأسه خوذة من الذهب، وفى يده حربة يرفعها ليطعن بها ملك كابل الذى يفر أمامه[١] - والصورة الثانية تمثل الإسكندر جالسًا على عرشه ويحيط به رجال بلاطه، وحول رأسه هالة لا تدل على قدسيته كما تدل أكاليل النور حول رءوس القديسين فى الفنون المسيحية[٢]؛ فإن هذه الأكاليل استعملت فى الفن الإسلامى لإظهار أهمية الأشخاص وعظمتهم فحسب[٣].

والصورة الثالثة تمثل الإسكندر وقد وقف أمام شجرة يحدث الطيور، وخلفه خادم أمسك بعنان حصان وبغل[٤]. ونحن نرى فى هذه الصور ما أخذه الفرس عن الصين من تمثيل للسحب وما يرتديه الأشخاص من خوذات مغولية.

وفى المكتبة الأهلية بباريس مخطوط من تاريخ المغول لعلاء الدين الجوينى، كتب فى سنة ٦٨٩هـ (١٢٩٠)، وفيه صورة واحدة تمثل هذا المؤلف يقدم نسخة من كتابه إلى السلطان أرغون[٥].

---

(١) انظر اللوحة ٧ شكل ١٠.

(٢) انظر اللوحة ٦ شكل ٩.

(٣) راجع Kuhnel : Islamische Kleinkunst ص٤.

(٤) راجع Stchoukine : Les Miniatures Persanes ص٣٥-٣٦.

(٥) راجع Blochet : Les ecoles de Peinture en Perse فى عدد يوليه وأغسطس سنة ١٩٠٥ Revue archeologique ص١٢٥ و Migeon: Manuel... ج١ ص١٣٩.

اللوحة رقم (٦)

(شكل ٩)

الإسكندر على عرشه

المدرسة الفارسية التترية. أوائل القرن الثامن الهجرى

صحيفة من شاهنامة باللوفر

اللوحة رقم (٧)

(شكل ١٠)

فرامرز يطارد ملك كابل

المدرسة الفارسية التترية. أوائل القرن الثامن الهجرى

صحيفة من شاهنامة باللوفر

اللوحة رقم (٨)

(شكل ١١)

السلطان غازان ومعه نساؤه. أوائل القرن الثامن الهجرى

(شكل ١٢)

السلطان أوجتاى ومعه أولاده. أوائل القرن الثامن الهجرى

من مخطوط لتاريخ رشيد الدين بالمكتبة الأهلية بباريس – عن ساكسيان

(شكل ١٣)

من كليلة ودمنة فوق – كلب يترك فريسته ليأخذ صورتها فى الماء

تحت – أسد يفترس ثوراً

بمكتبة يلدز باستانبول. القرن الثامن الهجرى – عن ساكسيان

وهناك أيضًا عدة مخطوطات من تاريخ الطبرى، ونسخة من شاهنامة كان يمتلكها الأستاذ شولتز Schulz: وفيها كلها صور لا تختلف صناعتها كثيراً عما تحدثنا عنه فى هذا الفصل.

وقصارى القول أن المغول رغم ما عرفوا به من غرام بالتدمير والتخريب قد عرفوا كيف يقدرون الصناع ورجال الفن، ولا غرابة أن نقرأ فى المصادر التاريخية كيف كانوا يخربون المدن فلا يبقون من أهلها إلا على الفنانين، وأرباب الصناعات التى تأثرت بها جميع الفنون الإسلامية ولا سيما صناعة التصوير وصناعة الخزف فى سلطان أباد.

على أن المصادر التاريخية تحدثنا بأن أول ما عرفته فارس من صناع بلاد الصين كان فى عصر السامانيين، حين أمر الملك نصر بن أحمد الشاعر الفارسى رودكى أن يكتب ترجمة فارسية شعرية لكليلة ودمنة، ثم أتى بمصورين صينيين زينوها بالرسوم التوضيحية، ولكن ذلك كان حادثًا فريداً، ولم يظهر تأثير الشرق الأقصى واضحًا جليًا فى الصور الفارسية إلا فى عصر المغول[1].

* * *

(١) راجع Arnold: Painting in Islam ص٦٥ - ٦٦.